الفصل الثالث

التقديم غير الاصطلاحي
أو
اختلاف النظم في العبارات ذات المعنى الواحد

مرَّ بنا ـ فيما سبق ـ نوعان من التقديم ...

أولهما : تقديم ما حقه التأخير وضابط هذا النوع : أن المقدَّم فيه له رتبة معلومة في التركيب كالخبر رتبته التأخير عن المبتدأ ، والمفعول به رتبته التأخير عن الفعل والفاعل .

وهذا النوع يُعلم حاله بمجرد النظر إلى العبارة ، حيث يُرى ما قُدِّم قد أزيل عن مكانه من الجملة ووُضِعَ في مكان آخر مقدَّمًا على ما كان له ، وقد عنى البلاغيون بهذا النوع ووضعوا له القواعد والأصول ، ولم يهتموا بغيره إلا فيما ندر .

ثانيهما : تقديم ما ليس له رتبة معيَّنة في التركيب ، لكنه قد يقع مصاحبًا لشبيه له أو أشباه مقدَّمًا عليها فيلحظ البلاغي سرًّا للمقدم كتقديم الوصية على الدَّيْن ، وتقديم حالة المقاتلية على المقتولية في بعض آي القرآن .

وكتقديم الأموال على الأولاد في كل موضع اجتمعا فيه مثل : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الكهف:٤٦) .

وقوله : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ (المدثر:١١-١٣) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ (الشعراء:٨٨).

وقوله : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (الأنفال:٢٨) .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ (سبأ:٣٧) .

وكثير غير هذه المواضع قُدِّمت فيها الأموال على الأولاد في القرآن الكريم.. ولعل السر في تقديم الأموال على الأولاد : أن الإنسان يملك أموالاً قبل أن يكون له أولاد ، وأن المال أكثر نفعًا للرجل من ولده ، وأكثر شغلاً له ، وهذا النوع ليس له نصيب ذو قيمة عند البلاغيين ، وإنما عني به المفسرون وكان أبرز خصائص منهجهم في التقديم ، وقدَّمنا فيما سبق نبذة من أقوالهم فيه معتمدين أساسًا على ما كتبه العلامة أبو السعود في تفسيره ، وجار الله الزمخشري في كشافه .

● نوع ثالث من التقديم :

ونحن الآن بصدد نوع ثالث من التقديم مختلف تمامًا عن النوعين السابقين لأنك إذا نظرت إلى العبارة مجردة لم يظهر لك فيها تقديم أو تأخير إنما ترى كل كلمة وقعت موقعها في الجملة التي هي فيها .

وإذا قارنتَ هذه العبارة بموضع آخر اتحد معها في أصل المعنى ظهر لك أن الكلمة قُدِّمت في موضع ، وأخِّرت في آخر .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾(البقرة:٥٨).

وقوله : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ (الأعراف:١٦١).

فلو أنك نظرتَ إلى آية البقرة المذكورة وحدها لم يظهر لك شيء من أمر التقديم والتأخير فيها .

لكنك حين تقارنها بآية الأعراف المتفقة معها في أصل المعنى المختلفة معها في النظم بان لك أمر التقديم والتأخير واضحًا .

فدخول الباب سُجَّدًا مُقدَّم في البقرة ، والقول بالحِطَّة مؤخَّر ، وقد عكس ذلك في الأعراف فجاء القول بالحِطَّة مقدَّمًا ودخول الباب سُجَّدًا مؤخرًا !!

وقد أحصيتُ من هذا النوع واحدًا وعشرين موضعًا في القرآن الكريم ، فرحتُ أبتغي توجيهًا لها عند المفسرين فلم أجد إلا عبارات مقتضبة في مواضع قليلة جدًا لم تشف غليل باحث ، وبدهي أن البلاغيين لم يعالجوا هذا النوع لا من قريب ، ولا من بعيد ، إلا في موضع واحد أو اثنين وسنشير إلى هذا كله في موطنه .

والحق يقال إن الإمام الزركشي قد سرد هذه الآيات في باب المتشابه وحلَّل القول في مواضع نادرة منها ، وحتى ما كتبه هو لم يحل المشكلة ، وسأنبه عليه في موضعه كذلك [1].

أمام هذه الاعتبارات اضطررتُ إلى استئناف البحث في هذه المواضع جميعًا ، معتمدًا في توجيه السر فيها على ما يأتي :

١- شروح المفسرين وما قاله بعضهم من عبارات مقتضبة لم تشف غليلاً .

٢- ما كتبه الزركشي في البرهان عن بعض المواضع منها .

٣- وهو المعتمد الأهم ، هو القرآن نفسه أوازن وأستنتج وأقف في كل موضع أدرسه على ما اشتمل عليه من دقائق اللفظ والمعنى ، وقرائن الأحوال واختلاف المقامات والسابق واللاحق نزولاً ، وكان لهذا فضل توجيهي في كل المواضع التي تناولتها بالدراسة هنا .

وبعد الفراغ من توجيهاتها كلها واستفراغ كل جهدي في دراستها بعد هذا كله عثرتُ على كتاب « درة التنزيل وغرة التأويل : في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز » . للشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٢١هـ ، رواية الإمام إبراهيم بن علي بن محمد المعروف بابن أبي الفرج[2] .

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي .

(٢) الطبعة الأولى سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) ويقع في ٣٩٨ صفحة من القطع الكبير .

وفي هذا الكتاب حديث عن أكثر هذه المواضع تناوله المؤلف في شيء من الإفاضة والتوسع .

وعلى التو قمتُ بمراجعة فاحصة لما كتبته في توجيهها مقارنًا بما جاء في كتاب الخطيب الإسكافي ، وللحق أقول : إنني لم أغيِّر كثيرًا فيما انتهيتُ إليه من نتائج بعد اطلاعي على هذا الكتاب ، وسوف أشير إلى رأيه ملخصًا فيما يأتي عند توجيه كل موضع إن شاء الله .

ونحدد ـ قبلاً ـ هذه الآيات :

● **إشارة سريعة لنصوص التقديم غير الاصطلاحي :**

الموضع الأول : هو آية البقرة : ٥٨ مع آية الأعراف : ١٦١ ، والثاني : آية البقرة : ٦٢ مع آية الحج : ١٧ ، والثالث : آية البقرة : ١٢٠ مع آية الأنعام : ٧١ ، والرابع : آية البقرة : ١٤٣ مع آية الحج : ٧٨ ، والخامس : آية البقرة : ١٧٣ مع آية المائدة : ٣ والأنعام : ١٤٥ والنحل : ١١٥ ، والسادس : آية البقرة : ٢٦٤ مع آية إبراهيم : ١٨ ، والسابع : آية آل عمران : ١٥٦ مع آية الأنفال : ١٠ ، والثامن : آية النساء : ١٣٥ مع آية المائدة : ٨ ، والتاسع : آية الأنعام : ١٠٢ مع آية غافر : ٦٢ ، والعاشر : آية الأنعام : ١٥١ مع آية الإسراء : ٣١ ، والحادي عشر : آية النمل : ١٤ مع آية فاطر : ١٢ ، والثاني عشر : آية الإسراء : ٨٩ مع آية الكهف : ٥٤ ، والثالث عشر : آية المؤمنون : ٨٣ مع آية النمل : ٦٨ ، والرابع عشر : آية الإسراء : ٩٦ مع آية العنكبوت : ٥٢ ، والخامس عشر : آية القصص : ٢٠ مع آية يس : ٢٠ ، والسادس عشر : آية آل عمران : ٤٠ مع آية مريم : ٨، والسابع عشر : آية البقرة : ١٢٩ مع آية الجمعة : ٢ ، والثامن عشر : آية البقرة : ٣٥ مع آية البقرة : ٥٨ ، والتاسع عشر : آية البقرة : ١٢٣ مع آية البقرة : ٤٨ ، والموضع العشرون : آيات : الأنعام : ٣٢ ومحمد : ٣٦ والحديد : ٢٠ مع آيتي الأعراف : ٥١ والعنكبوت : ٦٤ .

هذه عشرون موضعًا اتحد فيها أصل المعنى أو كله واختلفت صور النظم من حيث التقديم والتأخير وغيرهما ، وقبل أن نخوض في التفصيل أرجو أن أوافق على تلك التسمية التي أثبتها في العنوان وهي : «التقديم غير الاصطلاحي» أو «اختلاف النظم في العبارات ذات المعنى الواحد» .

● **الموضع الأول «دخول الباب والقول بالحِطَّة» :**

﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ (البقرة:٥٨) .

﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ (الأعراف:١٦١).

علَّل الزمخشري في كشافه[١] ، وأبو السعود في إرشاده[٢] التقديم والتأخير في هذا الموضع بعدم التناقض ، وحجتهما أن المأمور به هو الجمع بين الأمرين : القول بالحِطَّة ، والدخول ساجدين من غير اعتبار الترتيب بينهما ، وسواء قدَّموا الحِطَّة أو أخَّروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما .

أما الخطيب الإسكافي فقد أرجع التقديم والتأخير إلى أن القرآن إنما حكى المعنى دون اللفظ ، وما دام الأمر كذلك فلا غرابة[٣] .

وأرجع السيوطي هذا الاختلاف في هاتين الآيتين ، وما شاكلهما إلى التفنن في الفصاحة وإخراج الكلام على أساليب مختلفة[٤] .

● **رأينا في الموضوع :**

إن الذي ذكروه ـ وإن كان صحيحًا في نفسه ـ فغير كاف لإقناع الباحث في كتاب الله ، فهو أقرب إلى التوجيه العام من التحليل الموضوعي الدقيق ، الذي يكشف عن السر في كل ظاهرة من ظواهر التعبير ، لذلك ندير البحث على وجه آخر أرى أنه أقرب إلى الصواب ، والمعروف أن السجود قد يكون شكرًا

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١٣٣/٢ .

(٢) تفسير أبي السعود : ٣٠٨/٢ .

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ١٠ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ١٦/٢ .

على النِّعَم ، والاستغفار طلبًا للعفو من الذنوب ، والقوم في الموضعين مُنْعَم عليهم ومخطئون ، فتقديم السجود في البقرة على الاستغفار تغليب لجانب الشكر على جانب الاستغفار وهذا التغليب مبعثه أمران :

الأول : أن الله قد حثَّهم ـ صراحة ـ على الشكر في معرض الحديث .

الثاني : أن نعمة الله عليهم في البقرة أظهر وأكمل منها في الأعراف .

وذلك لاشتمال الحديث في البقرة على بعثهم بعد الموت بالصاعقة[1] ، وهذه نعمة جليلة ، كما وصف «الأكل» بالرغد ، ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ (البقرة:٥٨)، وقد فسر «الرغد» بالسعة[2] ولم يأت هذا الوصف في الأعراف .

والحديث في البقرة جار مجرى الخطاب ، بينما هو في الأعراف آت على أسلوب «الخبر» المحكي ، وقد عطف الأكل على الأمر بالدخول بـ «الفاء» ، فأفاد أن أكلهم الرغد مترتب على دخولهم ، وأنه سريع الحصول لهم ، والعطف في الأعراف بـ «الواو» وهو لا يفيد سوى مطلق الجمع .

والقول بالأمرين ـ الدخول ساجدين ، والقول بالحِطَّة ـ مسند إلى ضمير اسم الجلالة «الله» صراحة «وإذ قلنا» ، أما في الأعراف فقد جرى الحديث مجرى ما لم يسم فاعله : «وإذ قيل لهم ..» ففي الإسناد الأول من الفخامة والجلال ما ليس في الإسناد الثاني حسب مقتضيات المقام .

كذلك فإن التعبير في البقرة مفيد لحدوث النعمة المستوجَب عليها الشكر ، أما في الأعراف فلا يفيد ذلك الحدوث ضرورة لأن : «ادخلوا» غير : «اسكنوا» فالأول يفيد أنهم كانوا خارجها وأتيح لهم دخولها ، والثاني يفيد أنهم كانوا فيها ، والجديد في الأمر تمكنهم من الاستمرار على ما هم عليه .

---

(١) في الآيات السابقة على آيتنا .

(٢) تفسير النسفي : جـ ١ .

فظهور كمال النعمة في البقرة اقتضى تقديم الأمر بالسجود ، لأن السجود مظهر عظيم من مظاهر شكر النِّعَم ، ثم روعي جانب الخطيئة في الأعراف فقدَّم ما يناسبه وهو القول بالحِطَّة لزوال ما اقتضى التقديم في آية البقرة ، ومن الخير أن نذكر نصوص القصة في السورتين كاملة :

أولاً ـ البقرة : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:٥٦-٥٨) .

ثانيًا ـ في الأعراف : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(الأعراف:١٦٠،١٦١) .

● الموضع الثاني «هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى» :

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ ، جاء هذا التعبير بتقديم ﴿ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ على ﴿ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ في سورة البقرة [البقرة : ١٢٠ ، والأنعام : ٧١] .

وجاء عكسه ، أي تقديم : «الهُدَى» على «هُدَى اللهِ» حيث قال : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:٧٣).

ولم يذكر أحد من المفسرين في توجيهه شيئًا ، وأغفلها الخطيب الإسكافي فلم يتحدث عنها بهذا الاعتبار[1] ، بل جاء بآية البقرة لغرض آخر لم يدخل فيما نحن فيه من حيث التقديم والتأخير .

---

(١) انظر : درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ١٨-٢٣ .

والذي أراه من سياق الآيات نفسها أن لكل تقديم وتأخير في هذه المواضع سببًا اقتضاه .. فقد جاء في سورة البقرة : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة: ١٢٠) .

وجاء في الأنعام : ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٧١) .

وجاء في آل عمران : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٧٢، ٧٣) .

● **ما يهدى إليه النظر في هذا الموضع :**

إذا نظرنا في هذه المواضع نظرة فاحصة وجدنا أن تقديم : « هدى الله » ، له سبب اقتضاه في الموضعين الأول والثاني ، إذ هو آت نصًّا من أول الأمر على أن : « هدى الله هو الهدى » في معرض حديث يُدَّعى فيه أن غير الله له هدى.

ففي البقرة ادعى ذلك الهدى اليهود والنصارى ، ومن أجل مدعاهم هذا لا يرضون إلا عمن اتبعهم وصدَّقهم : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ . فكأنهم يرفضون أن يكون هدى غير ما هم عليه منكرون لما سواه ، فجاءت الآية مفندة دعواهم : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ ، أي : لا هداكم ولا هدى غيركم ، ففي الأسلوب قصر قلب ، يقول النسفي : « وهدى الله هو الهدى كله ليس وراءه هدى »[1] .

---

(١) تفسير النسفي : ١/٥٧ .

وكذلك في الأنعام : ﴿ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَا ﴾ فالأصحاب يدَّعون أن لهم هدى ، فسلك القرآن ـ هنا ـ مسلكه في آية البقرة لوجود السبب في الموضعين .

أما تقديم «الهدى» في آل عمران على «هدى الله» فلأن القوم هنا لم يبد منهم إنكار ، أو دعوى استئثارهم بالهدى ، بل هم مقرون بذلك وإنما يريدون أن يفتنوا مَنْ هم على هدى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ عما هم عليه ليستأثروا هم بهدى الله حسدًا من عند أنفسهم أن يؤتى أحد مثلما أوتوا ، فجاءت الآية الكريمة : ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ ، اعتراضًا مبينًا لوهمهم فيما حسبوا أنهم قادرون عليه من إضلال المؤمنين ، فتعريف الهدى بـ «الألف واللام» ، وجعله موضوعًا للحديث والحكم عليه بأنه : «هدى الله» هو التعبير الأنسب للمقام لما في «الـ» من معنى الاستغراق ، ففي العبارة قصر إفراد .

● **الموضع الثالث «شهادة الرسول وشهادة الأمة» :**

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾

(البقرة:١٤٢،١٤٣) .

وقال سبحانه : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾

(الحج:٧٨) .

في هذين النصين نوعان من التقديم ، أولهما : تقديم شهادة الأمة على الناس ، على شهادة الرسول على الأمة في آية البقرة .

وتقديم شهادة الرسول على الأمة ، على شهادة الأمة على الناس في آية الحج ، وهذا من التقديم غير الاصطلاحي .

وثانيهما : تقديم «عليكم» على «شهيدًا» في البقرة ثم الإتيان به على الأصل في آية الحج : «شهيدًا عليكم» وهذا من التقديم الاصطلاحي الذي يعنى به البلاغيون .

وسر التقديم في النوع الثاني ظاهر ، فقوله تعالى : «عليكم شهيدًا» في البقرة أفاد فيه تقديم الجار والمجرور : «عليكم» تخصيص شهادة الرسول على الأمة دون ما غيرها من الأمم .

● **ماذا قال المفسرون :**

وقد قال المفسرون[1] إن المراد بشهادة الرسول ـ هنا ـ على الأمة شهادة لها بالعدالة والتزكية ، لأن الله قد وصف الأمة بقوله «وَسَطًا» أي خيارًا عدولاً ، وعلى هذا فإن محمدًا ﷺ ، لا يزكى غير أمته لقيام هذه الأمة مقام الشاهد على جميع الأمم .

وهذا الفهم الذي فهمه المفسرون من شهادة الرسول على الأمة ، يفيدنا إلى أبعد مدى في فهم السر في النوع الأول الذي يصوِّره هذا السؤال .

● **سؤال وجواب :**

لما قُدِّمت شهادة الأمة على شهادة الرسول في البقرة وعكس الأمر في الحج؟

والجواب : إن الكلام في سورة البقرة مسوق لتقرير عدالة الأمة ، وكونها شاهدة على الأمم ، أما شهادة الرسول عليها فهي تزكية لها لقبول شهادتها ، والتزكية تكون بعد أداء الشهادة نفسها ، إذ هي أصل ، والتزكية تابعة لها ، ولولا ذلك لما قُدِّمت شهادة الأمة على شهادة الرسول ، لتباين المنزلتين .

ووجه آخر للتقديم أن يقال إن الخطاب أصلاً موجَّه إلى الأمة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة:١٤٣) ، وظاهر أن

---

(١) كشاف الزمخشري : جـ١ ، تفسير أبي السعود : جـ١ ، تفسير النسفي : ٦٢/١،٦٣.

«لام التعليل» داخلة على ما من أجله كان الجعل ، فتقديم شهادة الأمة على شهادة الرسول أمر اقتضاه حُسن النظم ، وتلاؤم المعنى .. هذا في البقرة .

أما في سورة الحج فقد جاء الترتيب بين الشهادتين على الأصل بتقديم شهادة الرسول على شهادة الأمة ، وذلك لأن المعنى ـ كما نص عليه المفسرون ـ أن يشهد الرسول على أمته بأنه بلَّغها ما أُنزِل إليه من ربه ، وأن تشهد الأمة على الأمم السابقة بأن رسلهم قد بلَّغتهم ما أُنزِل إليهم من ربهم ، فموضوع الشهادتين واحد هو التبليغ .

لذلك قُدِّمت شهادة الرسول ، لأنها الأصل ، وأُخِّرت شهادة الأمة ، لأنها الفرع ، إذ هي مترتبة عليها ومستقاة منها ، فالتقديم هنا من باب ما هو أصل على ما هو فرع .

ولم يذكر الخطيب الإسكافي شيئًا عن هذا الموضع في كتابه المذكور لا في البقرة ، ولا في الحج .

● الموضع الرابع «التوحيد والخَلْق» :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (غافر: ٦١، ٦٢).

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (الأنعام: ١٠٠-١٠٢) .

والناظر في هاتين الصورتين يجد عبارة : ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ قُدِّمت في غافر وأُخِّرت عليها عبارة : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

وفي الأنعام عكس الوضع . فقدِّمت : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وأخِّرت : ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

● توجيه ميسور :

والتوجيه ـ هنا ـ سهل ميسور ، إذ المقام في غافر مقام تعدد وتذكر بنعم الله فناسب ذلك تقديم : ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، والمقام في الأنعام مقام يزعم فيه المشركون تعدد الآلهة حيث جعلوا له شركاء الجن ، فقدِّمت : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ . لأن فيها نصًّا على نفي التعدد المزعوم ، فالتقديم هنا من باب تقديم الأنسب فالأنسب وقد تحدث عن هذا الموضع الخطيب الإسكافي بما لا يخرج عما قلناه[1] ، وإن جعل المقام في « غافر » مقام تثبيت خلقه .

● الموضع الخامس : « الَّذِينَ آمَنُواْ ، وَالَّذِينَ هَادُواْ » :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة:٦٢) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(الحج:١٧) .

في آية البقرة قُدِّمت : « النصارى » معطوفة على « الذين هادوا » على « الصابئين » وفي آية الحج عكس الوضع فقدِّمت : « الصابئين » على « النصارى » .

وشبيه بآية الحج قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (المائدة:٦٩) .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ١٠٨ .

فهنا ـ كذلك ـ قُدِّمت «الصابئين» لفظًا في أظهر الآراء على «النصارى» كما جاء في سورة البقرة .

● **رأي الإسكافي :**

ورأي الخطيب الإسكافي ـ ملخصًا ـ في هذه الواضع الثلاثة أن الترتيب بين هذه الفِرق ملاحَظ فيه أمران :

١- ترتيب بحسب الكتب السماوية المنزَّلة على كل مَن كان له منها كتاب .

٢- ترتيب بحسب الأزمنة لا بحسب الكتب .

ففي آية البقرة كان الترتيب بحسب الكتب ، فقدَّم الذين آمنوا بما أُنزِل على إبراهيم عليه السلام لأنهم سابقون ، ثم الذين هادوا لأن التوراة سابقة على الإنجيل ، ثم النصارى لأنهم أهل الإنجيل ، ثم أتى بالصابئين لأنهم لا كتاب لهم .

وفي المائدة والحج كان الترتيب بحسب الأزمنة . وقُدِّم «الصابئين» على «النصارى» لأنهم أسبق منهم زمنًا ، هذا واضح في سورة الحج لمجيء : «الصابئين» فيها منصوبًا ، أما في المائدة فقدَّم لفظًا ونوى تأخيره معنى بدليل رفعه على الاستئناف .. قال الإسكافي : وإنما قدَّم في اللفظ ، وأخَّر في النية ، لأن التقدم الحقيقي لكتبه المنزَّلة على الأنبياء عليهم السلام ..[1] .

● **تخريجنا لهذه المواضع :**

هذه خلاصة سريعة لما ذكره الإسكافي في توجيه هذه الأساليب . وكنت قد ذكرت قبله ما يأتي : ويبدو أن فهم السر هنا يتوقف على ملحظين :

الأول : ما هو المراد بالصابئين ؟

الثاني : نوع الحكم الذي حكم به على هذه الأسماء ، أو الفِرق الواردة في المواضع المتقدمة .

---

(١) درة التنزيل ، وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ١٤ ، ١٥ .

فالملحظ الأول يتضح أمره من أقوال المفسرين ، فالزمخشري والنسفي يريان أن الصابئين هم قوم عدلوا عن دين اليهودية ودين النصرانية وعبدوا الملائكة ، ويذهب العلامة أبو السعود مذهبًا قريبًا من هذا .

أما الملحظ الثاني .. فإن نوع الحكم المحكوم به على هذه الفِرق ، وهو خبر « إن» مختلف من موضع إلى آخر .

فهو في البقرة : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

ومثله في المائدة : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وقد تقدَّم على كل من الخبرين ما يمهد ويرشح له ويلوح به ، ففي البقرة جاء قوله تعالى : ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ .

وفي المائدة جاء قوله تعالى : ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ .

فههنا دعوة إلى الإيمان وحث وإغراء عليه ، وهذا لا يكون إلا في حال الحياة ، فقدَّم النصارى على الصابئين إذ لا يبعد أن يكون المراد بهم صابئي النصارى ، وقُدِّموا لفظًا على نيَّة التأخير معنى ليشمل صابئي الملَّتين : اليهود والنصارى ، وفي تقديم اليهود والنصارى عليهم لأنهم أفضل إذ هم أهل كتاب ، أما تقديم « الذين آمنوا» فعلى ما يراه الإسكافي أنهم مؤمنو الأمم السابقة ، فتقديمهم من حيث إنهم أفضل هذه الأنواع ، أما على ما يراه الزمخشري وغيره من المفسرين من أن المراد بهم « المنافقون» فهم وإن كانوا كفارًا من حيث الباطن فإن إطلاق وصف الإيمان عليهم في الظاهر جعلهم في المرتبة الأولى من الذِّكر لا باعتبار أنفسهم ، ولكن باعتبار شرف الإيمان نفسه .

● بين المفسرين والإسكافي :

وهذا ـ أعني رأي الزمخشري والمفسرين ـ أقوى من رأي الإسكافي ، بدليل نظمهم مع اليهود والنصارى والصابئين وغيرهم في سلك واحد ، وأنهم ـ جميعًا ـ مطالبون بتحقيق الإيمان لعريهم عنه .

أما الخبر في آية الحج فمختلف عن هذين إذ هو : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ يفصل بينهم في الجزاء ، خيرًا وشرًا ، أو يفصل بينهم في المكان فلا يجمعهم في مكان واحد ، وأيًّا كان نوع الفصل ، فهو لا يكون ـ كما صرَّحت الآية ـ إلا يوم القيامة ، لذلك سلك في النظم وجهًا آخر .

فكأن القرآن نظر في سرد هذه الفرق إلى السبق الزمني ، فاليهود وصابئوهم سابقون زمنًا على النصارى ، لذلك قَدَّم اليهود عاطفًا عليهم صابئيهم ، ثم ذكر النصارى .

ولم يحتج لذكر صابئي النصارى اكتفاءً بذكر صابئي اليهود ، كما لم يذكر في آية البقرة صابئي اليهود اكتفاءً بذكر صابئي النصارى ، وكانت آية المائدة وسطًا بين التعبيرين ، وتلك ـ إذن ـ قسمة عادلة !! . أما تأخير المجوس والذين أشركوا عن هذه الفِرق ، فلأنهم ليسوا أهل كتاب !

● الموضع السادس «وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ» :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة:٣).

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام:١٤٥).

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(النحل:١١٤،١١٥).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٢،١٧٣).

هذه أربعة نصوص ترددت فيها عبارة : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ في ثلاثة منها هي : المائدة ، والأنعام ، والنحل بتقديم : «لغير الله» على «به» والأصل تقديم : «به» على «لغير الله» لأن الضمير فيه عائد على «ما» و«لغير الله» متعلق بـ «أهل» وهو صلة الموصول «ما» والموصول مقدَّم دائمًا على الصِّلة، فكان حق العائد عليه التقديم على المتعلق بالصلة ، لكن خولف هذا الأصل في المواضع الثلاثة المذكورة وهذه المواضع منها موضعان مكيان هما : الأنعام والنحل ، والموضع الثالث ـ وهو المائدة ـ مدني إلا الآية التي فيها هذه العبارة فمكية نزلت في حجة الوداع كما نص على ذلك العلماء .

وجاءت العبارة على الأصل ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ في موضع واحد ، هو سورة البقرة ، وهي مدنية بلا خلاف .

والآن نستطيع أن نفهم السر في التقديم والتأخير في هذه النصوص الحكيمة وخلاصة القول فيه :

إن ما قُدِّم فيه «لغير الله» على «به» خطاب لأهل مكة ، مسارعة إلى نفي الشِّرك وإبطالاً لاتخاذ الأصنام آلهة تُعبد ، ويُذبح ويُنحر باسمها ، بدليل أن

السورتين ـ الأنعام والنحل ـ مكيتان ، والمائدة ـ وإن كانت مدنية ـ فإن الآية الواردة فيها هذه العبارة مكية نزلت في حجة الوداع .

وكأن القرآن يقول لأهل مكة : لا تظنوا أن الإسلام قد سكت عما أنكر عليكم وقد رحل رسوله ورجاله عن دياركم وغابوا عنكم طيلة عشر سنين ، فإن الإسلام باق على دعوته : الحلال حلال ، والحرام حرام ، لأنه مبادئ وأسس ثابتة لا تقبل الإبطال أو التبديل .

أما ما قُدِّم فيه «به» على «لغير الله» فهو خطاب لأهل المدينة ، وهم ليسوا عُبَّاد أصنام ولا كافرين حتى يسارع معهم إلى نفي الشرك ، وإبطال الأصنام ، والدليل على تأييد هذه الملاحظة أن الخطاب بدئ بقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا ..» فالخطاب إذن مع مؤمنين .

مع أهل مكة يهدف القرآن إلى نفي الشِّرك أولاً ، ثم تحريم ما حَرَّم ثانيًا ،

ومع أهل المدينة يهدف إلى تحريم ما يُحرِّم أولاً ، ثم الثبات على ما هم عليه من الإيمان ثانيًا .

● **مقامان مختلفان :**

مقامان مختلفان ، اختلف معهما التعبير اختلافًا روعي فيه دقائق الموقف وخفايا الأحوال .

هذا توجيهي للتقديم والتأخير في هذه المواضع الأربعة ، وظاهر أن اعتمادي فيه كان بحسب النزول وقرائن الأحوال .

أما الخطيب الإسكافي فقد بحث فيه من جهتين ..

الأولى : لماذا كان التقديم في البقرة : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ هو الأصل وأبان أن أصالته من حيث إن الضمير الذي هو الهاء في «به» مجرور بالباء و«لغير الله» معدى باللام ، وما جُرَّ بمثل هذه الباء فحقه التقديم على ما عداه ، وعبارته في ذلك : «أما الموضع الأول ـ يريد البقرة ـ فإنه جاء على الأصل الذي يقتضيه حكم اللفظ لأن الباء التي يتعدى بها الفعل في هذا المكان من

جملة الباءات التي تجيء كحرف من نفس الفعل ، فيجب لذلك أن تكون أحق بالتقديم»[1] .

أما تقديم «لغير الله» على «به» في المواضع الثلاثة المذكورة فقد اكتفى بأنه قُدِّم فيها لأنه الأهم[2] .

والذي يبدو أن ما اهتديتُ إليه في تحليل موضوعي للأسلوب ، وكشف السر على غير الوجه الذي ذكره الإسكافي .

● الموضع السابع «القَوَامة والشهادة» :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾(النساء:١٣٥).

في الآية الأولى قدَّم : «قوَّامين لله» على : «شهداء بالقسط» ، وفي الثانية قدَّم «قوَّامين بالقسط» على : «شهداء لله» .

السورتان في الأشهر مدنيتان : النساء باتفاق ، والمائدة فيها خلاف ، والذي أجمعوا عليه أن المائدة ـ أو التوبة ـ هي آخر ما نزل من القرآن[3] ، والمائدة أرجح في هذا المجال ، وقد نقل صاحب البرهان أن الرسول ﷺ قرأ المائدة في حجة الوداع ثم قال : «إن آخر القرآن نزولاً المائدة فأحلوا حلالها وحرِّموا حرامها»[4] .

(١،٢) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ٣٥ .

(٣،٤) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي : ١٩٥/١ .

ونقل السيوطي عن أبي عبيد ، عن محمد بن كعب : « قال : نزلت سورة المائدة في حجة الوداع وفيما بين مكة والمدينة » ونقل أيضًا أقوالاً أخرى تقوى من هذه الوجهة[1] .

ومع هذا فإننا نجد نسبة السورة في المصاحف إلى المدني ، ولعل هذا أخذ بالرأي القائل أن المدني هو ما نزل بعد الهجرة وإن نزل بمكة ، وهو أحد أقوال هو أشهرها .

● **قيمة هذه النقول :**

وهذه النقول التي ذكرناها تفيدنا إلى حد بعيد في توجيه التقديم والتأخير في هذين الموضعين لأننا نبني عليها الآتي :

١- أن ما قُدِّم فيه : ﴿ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (النساء:١٣٥) ، خطاب خالص للمؤمنين لأن القوامة لله عند المؤمنين أمر متحقق ، والمطلوب تحري العدل في الشهادة والحكم ، وذلك في سورة النساء .

وقد ذكر الواحدى أن الآية نزلت في النبي ﷺ وقال : روى أسباط عن السدي قال : نزلت في النبي ﷺ ، اختصم إليه غني وفقير ، وكان ضلعه مع الفقير رأى أن الفقير لا يظلم الغنى ، فأبى الله تعالى إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ـ حتى بلغ : ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾[2] .

٢- وأما ما قُدِّم فيه : ﴿ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ فهو خطاب للمؤمنين والناس عامة ، لأن السورة في كثير من الآراء نزلت بحجة الوداع ، أو هي آخر ما نزل من القرآن ، ولهذا فإن أهل مكة داخلون في المخاطبين بها ، إذ هي في مقام الإرشاد العام ، لذلك قدَّم فيها : ﴿ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ لأن القوامة لله أمر ليس بمتحقق عند جميع المخاطبين ، بل متحقق عند بعضهم دون البعض الآخر .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ١٩/١ .

(٢) أسباب النزول : الواحدي ـ ط . البابي الحلبي ص ١٠٦ .

● دلالة النص نفسه :

ولنا من نصوص الآيتين شاهد ، فآية المائدة تُشعر بأنها توصى المسلمين عامة بتحري العدل حتى مع قوم هم عدو لهم : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

والقوم ـ هنا ـ هم المخالفون في الدين ، وهذا لا يكون إلا حين يختلط المسلمون بهم ، فهم ـ أي المخالفون ـ تفترض الآية وجودهم ، ولا شك أن أهل مكة مهتمون بما تلاه الرسول ﷺ على الناس في حجة الوداع ، متناقلون له ، فقُدِّمت القوامة لله ، لأنها من الأمور الكلية ، والمقاصد العامة في الدين ، بينما تُشعرنا آية النساء بأن الأمر لا يخرج فيها عن توجيه المسلمين بأن يتحروا العدل فيما يعرض لهم من خصومات بعضهم مع بعض ، والقوامة لله أمر متحقق عندهم ، والجديد المطلوب هو المبالغة في توخي العدل بين الخصوم : ﴿ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ .

كما أن في فاصلتي الآيتين ما يؤيد ذلك ..

ففي المائدة كانت الفاصلة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، وفي النساء كانت الفاصلة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

حيث قدَّم : « خبير » في المائدة على : « تعملون » وقدَّم : « تعملون » على « خبيرًا » في النساء .

لأن الخطاب مع المخالفين ، وفيهم أهل مكة يقتضي إنشاء وإيجاد المأمور به ، لخلو المخاطب منه ، ولو تنزيلاً ، والمؤمنون لا ينكرون علم الله بعملهم ، بخلاف غيرهم فتقديم : « خبير » في المائدة على : « تعملون » مع أن المقدَّم متعلق به ، لأنه أهم ، ولعل الفعل : « كان » في فاصلة السورة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ . يشير إلى حصول هذا المعنى عندهم في الماضي ، بينما تخلو فاصلة المائدة من هذه الإشارة !

● رأي الخطيب الإسكافي :

فرَّق الخطيب بين الموضعين بأن ما في سورة النساء خطاب للناس بالعدل في الشهادة ، أما في سورة المائدة فالأمر للولاة[1] .. وعلى كل فإن ما ذكره لا يقنع الباحث في هذا المجال ، لذلك أثبتُ ما رأيته تفسيرًا أقرب إلى الواقع دون أن أغيِّر منه شيئًا .

● الموضع الثامن «اطمئنان القلوب» :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال:٩،١٠) .

﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران:١٢٥،١٢٦).

في هاتين السورتين عبارة تكررت فيهما مع اختلاف يسير في الصياغة فهي في الأنفال : ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ .

في الأنفال قدَّم : «به» على : «قلوبكم» ، والأصل تقديم «القلوب» لأنه فاعل ، وفي آل عمران جاء الترتيب على الأصل فقدَّم : «قلوبكم» على «به» .

● فرقان يوضحان السر :

والسؤال : لماذا قدَّم : «به» في الأنفال ، وأخَّرَ في آل عمران ؟ وموضوع الحديث في الموضعين واحد ؟

والجواب ـ فيما أرى ـ إننا نلحظ في الموضعين فرقين .. أحدهما : مستفاد من النص نفسه ، والثاني : خارج عنه ، وكلاهما يقتضيان مجيء النظم في الموضعين على ما هما عليه .

---

(١) درة التنزيل ، وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ١٢ .

فالأمر الذي يفهم من النص نفسه في آية الأنفال استغاثة من المؤمنين يوم بدر بربهم ، والاستغاثة : طلب الغوث ، والمستغيث : متشوِّق لما يُغاث به متطلع إليه في موطن الخوف وطلب النجدة فجاء قوله : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ (الأنفال:٩،١٠) . فقدَّم ضمير الإمداد مع عامله على القلوب لاهتمامهم به ، وشدة حاجتهم إليه ، لأنه موضع رجائهم .

فالمقام هو الذي اقتضى تقديمه ولعل عجز الآية يقوى ذلك : ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .. عزيز : لا يغلب جنده ، وحكيم : لا يعطي النصر والمدد إلا لمن يستحق ، مؤكدًا ذلك بـ « إن » واسمية الجملة .

أما آية آل عمران فقد خلت من هذا الاعتبار ، فأخرج الكلام فيها مخرج الوعد المشروط : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

(آل عمران:١٢٥،١٢٦).

ففي الآية حكاية ما حدث يوم « بدر » ، وتذكير لهم بما صنع الله معهم فيها ، واعدًا أن يصنعه في « أُحد » لو صبروا واتقوا .

فلم يصبروا عن الغنائم ، ولم يتقوا حيث خالفوا أمر رسول الله ﷺ ، فلذلك لم تنزل الملائكة[1] .

والذي يُفهم من خارج النص : أن « الأنفال » نزلت في غزوة بدر والدماء لم تجف بعد ، والعهد بها لم يطل فالخطاب فيها مؤسس[2]، فروعي فيها ما روعي من مقتضيات الأحوال على نحو ما ذكرنا ، وآية آل عمران تذكير بما حدث ، وحكاية حال مضت إذ هي ـ أي آل عمران ـ مدنية متأخرة في النزول عن

---

(١) تفسير الكشاف ـ الزمخشري : ١/٣١٦ .

(٢) أي الإفادة بمعنى لم يحصل قبل من طريق آخر .

وقوع غزوة بدر ، وفرق بين ما يُؤسس وما يُحكى ، لذلك اقتضى الحال في آل عمران أن يأتي التعبير فيها على الأصل إذ لا مقتضى للعدول عنه .

● **رأي الخطيب الإسكافي :**

يتلخص رأي الإسكافي في عبارته الآتية :

« .. وأما تأخير : «به» بعد قوله : «قلوبكم» فلأنه لما أخَّر الجار والمجرور في الكلام الأول هو قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ ، وعطف الكلام الثاني عليه ، وقد وقع فيه جار ومجرور وجب تأخيرها في اختيار الكلام ليكون الثاني كالأول في تقديم ما الكلام محتاج إليه وتأخير ما قد يستغنى عنه ، وأما تقديم : «به» في الآية الثانية فلأن الأصل في كل خبر يصدر بفعل أن يكون الفاعل بعده ثم المفعول والجار والمجرور ، وقد يقدَّم المفعول على الفاعل .. وكذلك الجار والمجرور بمنزلة المفعول في التقديم والتأخير .. وفي هذا الموضع .. فإن المعتمد تحقيقه عند المخاطبين إنما هو الإمداد بالملائكة ، وهو الذي أخبر الله تعالى عنه أنه لم يجعله إلا بُشرى فوجب أن يُقدَّم في الكلام »[1].

والذي يُفهم من هذه العبارة أن الخطيب علَّل التأخير في آل عمران على مناسبة لفظية بحتة ، والواقع أن التأخير في آل عمران لا يحتاج إلى تعليل لمجيئه على الأصل .

أما في الموضع الثاني ـ الأنفال ـ فقد وفق الخطيب حيث أرجع التقديم إلى ملحظ دقيق هو الحالة النفسية التي كانت تسيطر على فكر المخاطبين فخاطبهم القرآن مراعيًا تلك الحالة فقدَّم ما هو أهم عندهم .

وسبق أن ذهبنا هذا المذهب قبل الاطلاع على كتاب الإسكافي المذكور .. وذلك فضل من الله وإلهام .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ٦٢ ، ٦٣ .

● الموضع التاسع «وكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا» :

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩٦) .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥٢) .

في الإسراء قدَّم : «شهيدًا» على : «بيني وبينكم» وفي العنكبوت عكس النظم فقدَّم : «بيني وبينكم» على : «شهيدًا» فما السر إذن ؟

والجواب : إن المتأمل في الموضع الأول ـ الإسراء ـ يرى القوم قد أوغلوا في تحديهم للرسول ﷺ ، وتفننوا في مظاهر العناد ، فقالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ (الإسراء: ٩٠-٩٣) .

● التفاوت في التحدي هو السر :

لقد بلغ التحدي ـ هنا ـ غاية بعيدة ، انتقلوا فيه من صورة إلى صورة قاصدين من ورائه إعجازه وإفحامه .

أما الموضع الثاني ـ العنكبوت ـ فإن القرآن حكى فيه تحدي القوم للنبي ﷺ على وجه الإجمال : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥٠-٥٢) .

والتفنن في المعارضة ، ولحجج الخصومة فيما حكاه القرآن عن القوم في الإسراء حال داعية إلى تقديم : «الشهادة» على : «البينة» لأنهم حين لم تثمر فيهم النُّذر التي بلغتهم عن ربهم أثاروا في الداعي شعور الاستياء منهم والأسف عليهم ، فكأنه ـ أي الداعي ـ كان يردد في نفسه : ربي .. إن خروج هؤلاء عن الحق ، وتماديهم في الباطل ، ليس عن تقصير مني فقد بلَّغتهم ما أمرتني به ، وأنت تعلم أني قد بلَّغت .

ههنا خصومة محتدة ، ولا يفصل في الخصومات المحتدة أفضل من شهادة حق ، لذلك رجح تقديم : «شهيدًا» وهو الأصل ، على تأخيره ، وهو جائز ، وإنما كان تقديم : «شهيدًا» هو الأصل لأنه حال أو تمييز[1] ، وهو صفة مشبهة باسم الفاعل صالح لأن يتعلق به شيء ، والظرف هنا : «بيني وبينكم» متعلق به فرتبته إذن التأخير حيث لا مقتضى للخروج عن الأصل .

وتأخيره غير مخل بالتعبير لكونه في الأصل كذلك ولأن الفاصلة : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ ، تشير إلى طرفي موضوع الشهادة ، المشهود له ، والمشهود عليه ، إذ هي نص صريح في أن الله خبير بصير بالعباد ففيها نوع تخصيص بتعلق العلم والبصر .

وهذا يفيدنا في توجيه تقديم الظرف : «بيني وبينكم» على : «شهيدًا» في سورة العنكبوت .

ونص الآية مرة أخرى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .. ﴾ أي بيني أنا وبينكم أنتم لا بيني وبين أحد غيركم .

والداعي للتخصيص هنا المستفاد من تقديم الظرف : «بيني وبينكم» على : «شهيدًا» وهو العامل فيه أن قوله تعالى بعده : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، يفيد أن تعلق العلم ـ هنا ـ عام ، وعلم الله بالعباد أحد أفراده ،

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٥٤٢/٢ .

لذلك رجح ـ والله أعلم ـ تقديم الظرف لإفادة التخصيص ، لاحتمال المقام العموم ، على خلاف الأول .

وأمر آخر : هو أن تأخير : «شهيدًا» ليجاوز : «يعلم ما في السموات» من المناسبة في أعلى مكان ، لأن الشهيد عالِم لا محالة !!

● ملاحظة : ليس للخطيب الإسكافي توجيه في هذا الموضع لا في الإسراء ، ولا في العنكبوت ، فلزمت الإشارة .

● **الموضع العاشر «التلاوة وتعليم الكتاب» :**

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٩).

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة:١،٢) .

في البقرة قدَّم تعليم الكتاب والحكمة ، على التزكية ، وفي الجمعة عكس الترتيب فقُدِّمت التزكية على تعليم الكتاب والحكمة !!

فلماذا أوثر في كل موضع ما هو عليه من النظم ؟

● **نظرة فاحصة تكشف السر :**

الجواب : إن نظرة فاحصة في النصين تكشف السر ، فتقديم : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ في البقرة، وعطفه مباشرة على قوله: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ ﴾ لما بين المعنيين من تناسب لدرجة أنهما يبدوان في قوة المعنى الواحد ، إذ من التلاوة يكون حصول تعليم الكتاب والحكمة .

كما أن تأخير : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ فيه تناسب بينه وبين الفاصلة : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ لأن التزكية لا تكون إلا من العزيز الحكيم ، إذ هما وصفان موجبان للعظمة والإصابة في الفعل والقول .

أما تقديم التزكية في الجمعة فلتقدم : «القدوس» وما عطف عليه إذ بين التزكية والقداسة نسب وصلة .

وتأخير تعليم الكتاب والحكمة لما بينه وبين الفاصلة من تناسب كذلك اقتضاه المعنى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ . فجمع بينهما لكي تظهر نعمة الله عليهم فضل ظهور ، لأن الضدين إذا اجتمعا وضح الفرق بينهما .

● فهم آخر :

ولنا أن ندير الأمر على اعتبار آخر مؤداه : أن المقام في سورة البقرة مقام دعاء سلك فيه الداعي الترتيب الطبيعي بين المتعاطفات ، لأن قصده أن تبنى الأمة بحصول وسائل الهداية لها ، فالرسول يتلو آيات ربه على مسامعها فيزيل ما عندها من جهل ، ويعلِّمهم عن طريق التلاوة الكتاب والحكمة ، فإذا حصل لهم ذلك زكت أنفسهم وطهرت قلوبهم حيث هيئت دواعي ذلك لهم فقدَّم ما هو سبب على ما هو مسبب ، وأمر ذلك ظاهر .

والمقام في سورة الجمعة مقام تمجيد لله ، وامتنان على عباده بجلائل النِّعَم ، فقُدِّمت التلاوة لأنها أولى وسائل الهداية ، وقُدِّمت «التزكية» على ما بعدها لأنها المقصود الأهم من التربية والإصلاح المنشودين ، وأخِّر تعليم الكتاب والحكمة ليظهر أثر النِّعَم واضحًا إذا قُرِنَ بضده ، وهو الضلال المبين الذي كانوا فيه من قبل .

ونظير ذلك : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى:٦-٨) . فقرن كل نعمة بما يقابلها مما أزاله الله عنه ، ليظهر كمال فضل الله عليه .

● ملاحظة : ليس للخطيب الإسكافي توجيه في هذا الوضع لا في البقرة ولا في الجمعة فلزمت الإشارة .

● الموضع الحادي عشر «لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيءٍ مِمَّا كَسَبُوا» :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٦٤) .

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

(إبراهيم:١٨) .

في هاتين الآيتين وردت عبارة : ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ﴾ بتقديم : «شيء» على : «مما كسبوا» في البقرة . ثم بتقديم : «مما كسبوا» على : «شيء» في سورة إبراهيم عليه السلام .

● بحث عن السر :

العبارة في آية البقرة وردت ضمن خطاب للمؤمنين ينهاهم الله أن يكونوا مثل مَنْ يُنفق ماله رئاءً ولا يؤمن بالله واليوم الآخر .

ووردت في آية إبراهيم عليه السلام في سياق كلام مبني من أول الأمر على بيان مصير أعمال الكافرين ، وهو شامل لجميع أعمالهم من الطاعات الظاهرة ومنها الإنفاق .

والمثل الأول - في سورة البقرة - تعليمي إرشادي للمؤمنين ، والثاني : إنذاري تقريري للكافرين ، وما سوف تكون عليه أعمالهم يوم القيامة والذي ينفق ماله رئاءً الذي ورد في آية البقرة هو المنافق[1] المُظْهِر للإيمان المُبطِن للكفر .

أما المقصود بآية إبراهيم فهم الكافرون المعلنون لكفرهم .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١/٤٢٦ .

والمنافق حين ينفق إنما يريد استثمار نفقته لتعود عليه بالنفع ، ولما كان يتظاهر بإنفاقها بين الناس ، موهمًا لهم أنه يبتغي بها وجه الله ، ويخفى قصده الحقيقي فإن : «شيء» وهو ما يرجو أن يحصل عليه من «ربح» هو كل أمله الذي يملأ نفسه فقدِّم من أجل ذلك وسُلِّطَ عليه النفي ليكون أبلغ في قطع آماله ، وعقم كسبه .

أما يوم القيامة .. فإن الكافرين تتعلق آمالهم بكسبهم ظانين أنه مُجْدٍ لهم ، فكسبهم حينئذ ملء نفوسهم فعمد القرآن من أول الأمر إلى محط رجائهم ونفي قدرتهم عليه : ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ ، وفي ذلك إشارة إلى عجزهم الشامل فإذا كانوا عاجزين عن كسبهم ، فإن عجزهم عما سواه ثابت متحقق .

● ملاحظة : ليس للخطيب الإسكافي توجيه لهذا الموضع ـ لا في البقرة ولا في إبراهيم ـ لذلك لزم التنويه .

● **الموضع الثاني عشر «الكِبَر والعُقْر» :**

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (آل عمران:٤٠) .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (مريم:٨) .

في آل عمران قدَّم بلوغه الكِبَر على عُقْرِ امرأته ، وفي مريم عكس الترتيب فقدَّم عُقْر المرأة على بلوغه الكِبَر ..

فما السر إذن ؟

● **ملاحظة أمرين :**

والجواب : ولا بد ـ هنا ـ أن نلحظ أمرين :

أولهما : أن زكريا عليه السلام كان يمنعه من الإنجاب سببان : عُقْر امرأته وتقدم سِنِّه .

ثانيهما : أن هذين السببين كانا يخطران بباله بدرجات متفاوتة أحيانًا .. إذا تقرر هذا فإن السبب الذي يمثل في خاطره أكثر يعمد إلى تقديمه ويؤخِّر ما عداه .

ففي سورة آل عمران أفاد التعبير نفسه أن الكِبَر هو السبب الأظهر عند زكريا عليه السلام ، حيث أسند إليه البلوغ : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾ فكأن الكِبَر كان يطارده حتى أدركه ..

بخلاف مريم فإن البلوغ فيها مسند إلى ضمير زكريا عليه السلام ، لذلك قَدَّم الكِبَر في آل عمران وأخَّر عُقْر امرأته .

أما في مريم فإن تقديم العُقْر على بلوغه الكِبَر .. فلأن العُقْر ـ على ما شرحناه ـ كان السبب الأظهر .

● **وسبب آخر :**

أن زكريا عليه السلام قد تقدَّم على قوله هذا في سورة مريم شكواه إلى ربه من الكِبَر : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (مريم:٤) ، ومع هذا فقد تلقى البشرى من ربه بأنه وُهِبَ له غلامٌ .. فكأن الله ألهمه ، أو هو فهم من البشرى أن ما شكاه من الكبر ليس بسبب مانع من الإنجاب .. إذن فالعُقْر ما زال باقيًا في خاطر زكريا فقدَّمه على الكِبَر ، ثم عطف بلوغه عنه عتيًّا عليه لأنه لم يشك ـ قبل ـ العُقْر ، فكان عنده السبب الأظهر .

فالتقديم هنا والتأخير هناك ، والتأخير هناك والتقديم هنا ، وإنما هو بحسب ما هو أظهر ، ولم يتحدث الخطيب الإسكافي عن هذا الموضع كذلك ، وكذلك يلاحظ الباحث أن عُقْر امرأة زكريا عليه السلام حين أخِّر في كلام آل عمران كانت العبارة الدالة عليه : ﴿ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ مبتدأ وخبر مجردان .

ولكن حين قُدِّم في مريم كانت العبارة الدالة عليه : ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ بزيادة « كان » إذا قورنت بموضعها في آل عمران ، و« كان » تفيد ثبوت النسبة في الماضي مع الاستمرار هنا .

● الموضع الثالث عشر «وتَرَى الفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ» :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ١٤).

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (فاطر: ١٢).

هذان موضعان متماثلان ـ كما ترى ـ في المعنى، وقد تكررت فيهما عبارة: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ بتقديم «مواخر» وهي حال من «الفُلْك» إن كانت الرؤية بصرية، ومفعول ثان لـ«ترى» إن كانت علمية، ثم أخَّر الظرف: «فيه» عن «مواخر»، وهذا الترتيب أصلي.

هنا في النحل .. أما في فاطر فقد عكس الوضع، فقدَّم الظرف «فيه» على: «مواخر» على خلاف الأصل، إذ الظرف من حقه التأخير على ما تقدَّم فما السر إذن؟

تقدَّم أن تقديم: «مواخر» في النحل على: «فيه» هو الأصل ولا مقتضى للعدول عنه.

● سرد محكم:

أما تقديم الظرف: «فيه» على: «مواخر» في فاطر، فسببه فيما أرى هو تعلق ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ به.

والتقدير: وترى الفُلْكَ فيه تمخر الماء ـ أي تشقه ـ لتبتغوا من فضله، لذلك أخر: «مواخر» ليجاور معموله: «لتبتغوا» والأصل عدم الفصل.

ودليلي على ذلك من القرآن نفسه أن الواو حُذِفت في هذا الموضع، بينما لم تُحذف في الموضع الأول.

والسبب : أن الآية الأولى تبدأ بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ ﴾ وما عطف عليه من استخراج الحلية ، وجري السفن ، وابتغاء الفضل .

أما الآية الأولى فليس فيها ما يصلح لعطف الابتغاء عليه ، فهو إذن متعلق بـ« مواخر » والمعنى ـ كما بيَّنا ـ لا يأباه . والله أعلم .

● **رأي الخطيب الإسكافي :**

أطال الإسكافي في توجيه هذا الموضع واهتم في حديثه بتقديم : « فيه » في فاطر وحذف الواو منها .

ويكاد يتفق رأيه مع ما ذكرناه .. إلا أنه زاد أن من جملة ما اقتضى تقديم « فيه » أن حروف الجر في هذا الموضع جاءت مقدمة في أكثر من موضع : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ .

والإسكافي موفق في هذا التوجيه الذي اتفقنا معه في جوهره وزاد هو المناسبة اللفظية من تقديم نظير ما قدم[1] .

● **الموضع الرابع عشر : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ » :**

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الإسراء:٨٨،٨٩).

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف:٥٤) .

في الإسراء قدَّم : « للناس » على : « في هذا القرآن » وفي الكهف قدَّم : « في هذا القرآن » على : « للناس » والموضعان متحدا المعنى .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ٢١٠ – ٢١٣ .

● سؤال وجواب :

فما السر إذن ؟ ..

والجواب : المقام في الإسراء مقام تحد وإعجاز ، تحد للناس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن مشروطًا مظاهرة بعضهم لبعض ، فما بالهم لو انفردوا ، وهذا التحدي قد بلغ النهاية باشتراط اجتماعهم .

فالمتحدَى ـ هنا ـ نوعان : الإنس والجن ، والمقصود بالتحدي بالدرجة الأولى هم الإنس أو الناس ، لأنهم هم الذين زعموا أن مقدورهم أن يأتوا بمثل القرآن فكان تقديمهم فيه شبه تعريض بهم ، حاصله ـ والله أعلم ـ أن ما زعموا محاكاته ـ أي القرآن ـ قد صرفنا فيه من كل مثل ، و«صرَّفنا» : أي رددنا وكررنا غرائب الأمثال لهم ليهتدوا فأبوا إلا الإعراض والبطر بدل أن يشكروا هذه النِّعَم الموجبة للشكر والداعية إلى الهداية وكيف لهم أن يحاكوه وما هم منه على صدر ، أو ورد .

أما في سورة الكهف ، فقدَّم : «في هذا القرآن» لأن السورة من أول الأمر إشارة إلى فضل القرآن وأثنت عليه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا ﴾ (الكهف:١،٢) .

ولأن سياق الحديث وارد في أهوال القيامة : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾

(الكهف:٥٢-٥٤) .

والقرآن آخر الكتب نزولاً فكأنه يقول لهم : إن هذا القرآن كان فيه نفعكم ، لأنه الحق فجادلتم فيه ولم تؤمنوا به .

ولأن السورة نفسها ـ الكهف ـ قد سردت قصة أهل الكهف وقصة الرجلين وضربت مثلاً للحياة الدنيا ، ثم أشارت إلى آدم والملائكة وإباء إبليس السجود

لآدم ، وذكرت ـ تفصيلاً ـ قصة الإسكندر ذي القرنين ويأجوج ومأجوج فهي ـ إذن ـ سجل حافل بالمُثل والقصة .

لهذه الاعتبارات كلها أرى السر في تقديم : «في هذا القرآن» على : «للناس» والله أعلم .

● رأي الخطيب الإسكافي :

يكاد ما ذكرته هنا ـ قبل اطلاعي على رأي الإسكافي كما مَرَّ ـ يتفق مع ما ذكره الخطيب الإسكافي وإن زدتُ عليه في موضعين :

أولاً : اعتباري في تقديم : «للناس» كونهم معرَّضًا بهم إذ هم المقصود بالتحدي أولاً .

ثانيًا : ما قُدِّم فيه : «في هذا القرآن» وارد في سياق حديث عن أهوال يوم القيامة .

كما زاد هو بعض تفاصيل أسلوبية وتحدث عن آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ (الإسراء: ٤١).

● الموضع الخامس عشر : «رزق الآباء والأبناء» :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥١).

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٣١) [1].

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ١١٢-١١٧ .

في الأنعام قدَّم رزق المخاطبين على رزق أولادهم المدلول عليه بعطف ضميرهم عليه ، وفي الإسراء قدَّم رزق الأولاد على رزق المخاطَبين ، فما السر إذن والمعنى في الموضعين واحد ؟

الجواب : إن الخطاب في الأنعام مع قوم فقراء يهمهم رزقهم أولاً ، ثم رزق أولادهم ثانيًا فقدَّم رزقهم لأنه عندهم أهم .

وفي الإسراء الخطاب مع غير فقراء لكنهم يخشون وقوع الفقر في المستقبل فتجوع أولادهم ، فرزق أولادهم ـ لأنه مظنة القلة المتوقعة ـ أهم عندهم من رزقهم لأنهم حاصلون عليه ، فقدَّم رزق أولادهم على رزقهم لأنه أهم كما بيَّنا.

والدليل أن التعبير في الأولى هكذا : « من إملاق» أي فقر واقع فعلاً ، وفي الثانية : « خشية إملاق» أي فقر متوقع .

هذه لمحات دالة في الأسلوب تغني عن كل تخريج ، وهكذا تنص كتب التفسير وكتب البلاغة فليس لنا في هذا الموضع سوى أمانة النقل .

أما رأي الخطيب الإسكافي فمثل ما قرره المفسرون[1] .

● **الموضع السادس عشر : « لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ» :**

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

(النمل:٦٧-٦٨) .

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

(المؤمنون:٨٣) .

في الآية الأولى قدَّم اسم الإشارة : « هذا» مرادًا به البعث . على : « نحن وآباؤنا» .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ١١٦ ، ١١٧ .

وفي الآية الثانية قدَّم : « نحن وآباؤنا » على : « هذا » والمعنى في الموضعين متحد .. فما السر إذن ؟ .

● **رأي الزمخشري :**

أجاب الزمخشري فقال : « فإن قلتَ : قدَّم في هذه الآية : « هذا » على : « نحن وآباؤنا » وفي آية أخرى قدَّم : « نحن وآباؤنا » على : « هذا » ؟

قلتُ : « إن المقدَّم هو الغرض المعتمد بالذِّكر ، وإن الكلام إنما سبق من أجله .

ففي إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام ، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد »[1] .

هذا ما ذكره الزمخشري .. وهو توجيه عام قد لا يكتفي به باحث يتطلب سرًّا أدق وتوجيهًا أعمق ، إذ عليه يرد سؤال ؟ : لماذا كان الأصل في إحدى الآيتين « اتخاذ البعث » ، وفي الأخرى على « اتخاذ المبعوث » وهل هناك مانع أو عكس النظم » ؟

● **رأيي في الموضوع :**

والذي أراه ـ بعد طول تأمل ـ أن الأمر ينكشف إذا وقفنا على حال منكري البعث النفسية لحظة نطقهم بكل من العبارتين ، كما حكاهما عنهم القرآن ، والمرجع في ذلك إلى القرآن نفسه .

فقد ذكر القرآن قبل الآية الأولى ـ أعني آية النمل ـ قوله تعالى : ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ فصيرورتهم ترابًا أبعدت عندهم احتمال وقوع البعث ، إذ أصبحوا في طور مغاير لما كانوا عليه في الحياة ، كذلك فإنهم هنا طووا ذكر الموت الذي يُشعر بسبق الحياة ، واكتفوا بقولهم : « كنا ترابًا » فكان ـ على زعمهم ـ حريًّا بالإنكار والاستغراب ، لذلك قُدِّم اسم

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٩٩/٣ .

الإشارة الدالة عليه لكونه محل إنكارهم القوي فصار عندهم أسرع حضوراً في الذهن ، فهو من هنا كان أهم بالإنكار فقُدِّم .

أما في آية «المؤمنون».. فقد ذكر القرآن الحكيم قبل مقولتهم قوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٨١-٨٣).

فقد أقروا ـ هنا ـ بالموت ، فهم إذن قد سبقت لهم حياة ، ثم ذكروا صيرورتهم ترابًا وعظامًا ، والعظام أثر باق من آثار الحياة التي كانوا يحيونها ، فهم لم يتحولوا إلى طور مغاير تمامًا لما كانوا عليه في الحياة ، لذِكر العظام ، وهذا أضعف من درجة الإنكار عندهم لوجود العظام ولتقدم ذكر الموت المنبئ بتقدم الحياة ، وهذا الضعف في درجة الإنكار كان سببًا ـ والله أعلم ـ في تقديم : «نحن وآباؤنا» وتأخير هذا لأنه موضع الاستغراب والإنكار .

● **رأي الخطيب الإسكافي :**

يرى الإسكافي أن أمر التقديم في الموضعين راجع إلى المناسبات اللفظية ، فالآية الأولى أُسندت فيها الأفعال إلى فاعليها بدون فصل ، فلما قال : «لقد وعدنا» وجب في البناء على الأفعال المتقدمة أن يتم حكم الفاعل وهو توكيده والعطف عليه فقدَّم :«نحن وآباؤنا» على المفعول الثاني وهو : «هذا» لذلك ، وأما الآية الثانية ... فإن الذي تقدمها : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا ﴾ فأخَّر المعطوف على «اسم كان» الذي هو كالفاعل لها وهو قوله : «وآباؤنا» عن المنصوب الذي هو كالمفعول لها ، وهو قوله : «ترابًا» فصار الأصل ما هو كالمفعول مقدَّمًا على ما هو معطوف على الفاعل ، فاقتضى البناء عليه تقديم المفعول ثم العطف على الفاعل المضمر ، فجاء : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾ لذلك[1] .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

والفرق بين توجيهه ـ هو ـ وما ذهبت إليه أنه يرجع التقديم والتأخير إلى المقتضيات اللفظية ، ونحن التمسنا مقتضيات نفسية ، اعتمدنا فيها على ما بين الموضعين من فروق لفظية غير ما اعتبره هو ، ولا مانع ـ عندي ـ أن يُحمل الأمر على كلا الاعتبارين .

● الموضع السابع عشر : «وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى» :

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (القصص: ٢٠) .

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

(يس: ٢٠).

في القصص في الآية الأولى ، جاء ترتيب النظم على وضعه الأصلي فولى الفاعل فاعله : «رجل» .

وفي الآية الثانية في سورة يس ، خولف النظم فجاء الجار والمجرور : «من أقصا المدينة» واليًا الفعل ، فاصلاً بينه وبين فاعله ، على خلاف الأصل ، مع ملاحظة أن التشابه بين الموضعين لفظي فقط ، لأن ما في سورة القصص : الرجل هو مؤمن آل فرعون والمدينة هي مصر ، أما في سورة يس .. فإن الرجل هو حبيب بن إسرائيل النجار والمدينة هي أنطاكية[1] .

وهذا الاختلاف لا يمنع من البحث عن سر التقديم والتأخير فيهما حيث تشابه الموضعان لفظًا ، فما السر إذن ؟

● رأي السكاكي :

والجواب : يرى السكاكي أن تقديم الجار والمجرور في آية يس .. لأن ما قبل هذه الآية دال على سوء معاملة أهل المدينة للرسل . فكان ذلك مظنة

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشري : ٤/٧٥٦ .

أن يسأل سائل : أكانت هذه المدينة كلها بهذه الصفة أم أن فيها موطنًا هو منبت خير ؟ ، لذلك قدَّم ما يشتمل على المدينة لأنها أهم عند المخاطب[1] .

وهذا توجيه حسن نسجل إعجابنا به للسكاكي رحمه الله ، أما تقديم : «رجل» على الجار والمجرور في آية القصص ، فقد جاء على الأصل حيث لا مقتضى للعدول عنه .

● **رأي الخطيب الإسكافي :**

ويرى الإسكافي أن تقديم الجار والمجرور في «يس» لأن فيه تبكيتًا للقوم إذ جاء «الناصح» من أقصا مكان فيها وهو لم يحضر ما يحضرون ، ولم يشهد ما يشهدون من الآيات والنُّذُر .

أما تقديم «رجل» في القصص فلأنه الأصل ولم يكن ما يدعو إلى التبكيت ، وهذا كلام رائع جدًّا ، ولا مانع من حمل الأسلوب في الموضعين على ما ذكره السكاكي والإسكافي[2] .

● **الموضع الثامن عشر «الأكل الرغد» :**

﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ (البقرة:٣٥) هذا الخطاب من الله لآدم وحواء مؤذن لهما بدخول الجنة والأكل منها فقدَّم : «رغدًا» على : «حيث شئتما» ثم قدَّم : «حيث شئتم» على : «رغدًا» في خطابه ـ سبحانه ـ لبني إسرائيل عند دخولهم قرية أريحاء ، وكلا التعبيرين في سورة البقرة ، الأول في الآية : (٣٥) ، والثاني في الآية : (٥٨) ـ فما السر إذن ؟

الجواب : إن تقديم : «رغدًا» على : «حيث شئتما» في خطاب الله لآدم وحواء لأن طعامهما كان أهم عندهما ، أما المكان المدلول عليه بـ «حيث شئتما» فما كان يعنيهما في شيء لأنهما اثنان والجنة فسيحة لا تضيق بهما .

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٠٤ .

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي : ٣/٧ .

وتقديم : «حيث شئتم» في خطاب بني إسرائيل لأنه أهم عندهم ، إذ كانوا جمعًا من الناس ، والمدخول فيه «قرية» فقد يظنون أنها تضيق بهم إذا سعوا فيها ابتغاء الرزق والسكنى ، فقدَّم ما هو عندهم أهم ، والله أعلم .

● ملاحظة : لم يتحدث الخطيب الإسكافي عن هاتين الآيتين من حيث ما فيهما من التقديم والتأخير الذي وجهناه ، بل تحدث عن إحداهما من وجه آخر .

● الموضع التاسع عشر «الشفاعة والعدل» :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة:٤٨) .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة:١٢٣).

هاتان الآيتان بينهما فروق من وجوه :

١- في الأولى قُدِّمت الشفاعة على العدل وجُعِلت الشفاعة نائب فاعل لفعل منفي هو : «لا يقبل» ، أما العدل فجُعِل نائب فاعل لفعل منفي هو : «يؤخذ» .

٢- وفي الثانية قُدِّم العدل على الشفاعة وجُعِل نائب فاعل لفعل منفي هو : «لا يقبل» وهو نفس الفعل الذي أسند إلى الشفاعة بنفس الطريقة في الآية الأولى .

٣- أما الشفاعة فقد أخِّرت فيها مع التغاير في الفعل الذي أُسنِد إلى العدل حين أخِّر في الآية الأولى ، وكان حقه أن يُسند إليها لتتم المقابلة من كل الوجوه ، وهي في التركيب الجديد : «ولا تنفعها شفاعة» فما السر إذن في هذا الاختلاف بين الموضعين ؟

● **توجيه الزركشي لهاتين الآيتين :**

نقل الزركشي سؤالين حول هاتين الآيتين[1] :

الأول : لماذا قدَّم في الأول نفي قبول الشفاعة على نفي أخذ العدل ؟

الثاني : ولماذا عبَّر في الثانية بنفي قبول العدل ونفي نفع الشفاعة مكان عدم أخذ العدل ، ونفي قبول الشفاعة حيث قدَّم المؤخر وأخَّر المقدَّم في الأولى؟

نقل هذين السؤالين ـ ولم يرتض أن يكون هذا التصرف في التعبير من باب التوسع في الكلام ، وذكر في توجيه ذلك نقولاً وآراء نوجزها فيما يأتي :

أدار الأمر على النفس مكررة في كل موضع مرتين ، والنفس الأولى غير الثانية ، وكل منهما صالح لأن يرجع الضمير عليه في : « منها » و « تنفعها ».

وجعل الضمير في : « لا يُقبل منها شفاعة » راجعًا إلى النفس الأولى التي هي الشافعة لغيرها ، والغرض من هذا ذِكر الشفاعة للمشفوع له ، لذلك قدَّمها وأخبر أنها غير مقبولة وهذا من شأنه حمل السامع على ترك الشفاعة لعلمه بعدم قبولها .

أما : « ولا يؤخذ منها عدل » فالضمير ـ عنده ـ يحتمل العود على كل من النفسين ، فإذا قُدِّر عوده على الأولى « الشافعة » فقد جرت العادة أن الشافع إذا أراد أن يدفع إلى المشفوع عنده شيئًا ليكون مؤكدًا لقبول شفاعته ، فمن أجل هذا قُدِّم ذكر الشفاعة على دفع العدل »[2] .

وهذا كلام غير واضح ـ كما يبدو ـ ولعله أراد أن الشافع يتقدم بعرض شفاعته عند المشفوع عنده أولاً ، ثم يعطيه ما يريد أن يؤكد به قبول شفاعته ، ويكون التقديم على هذا جاريًا على الأصل .

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ١/١٢٤ .

(٢) المرجع السابق : ١/١٢٥ .

ثم قال : « وإن جعلنا الضمير راجعًا إلى المشفوع فيه ، فهو أحرى بالتأخير ليكون الشافع قد أخبره بأن شفاعته قد قُبلت ، فتقديم العدل ليكون ذلك مؤسسًا لحصول مقصود الشفاعة وهو ثمرتها للمشفوع فيه »[1] .

وكلامه ـ هنا ـ يُفهم منه أن يجوز حصول الأمرين : قبول الشفاعة ودفع العدل ، وليس الأمر كذلك .. لأن المراد من الآية ـ والله أعلم ـ أن عدم قبول الشفاعة باعث على تحريك النفس على دفع العدل لتكون الشفاعة مقابل عوض ، يعني أنه يفكر في تقديم العدل بعد فشل الشفاعة من الشافع .

هذا في الآية الأولى ...

أما الآية الثانية .. فقد جعل الضمير في : « منها عدل » راجعًا إلى النفس الثانية التي هي صاحبة الجريمة . وتقديم العدل ـ هنا ـ للحاجة إلى الشفاعة عند مَن طلب منه ذلك قال :« .. ولهذا قال في الأولى :« ولا يُقبل منها شفاعة »، وفي الثانية : « ولا تنفعها شفاعة » لأن الشفاعة إنما تُقبل من الشافع وإنما تنفع المشفوع له »[2] .

ثم حكى عن بعض مشايخه ـ لم يذكر اسمه ـ إن الله نفى قبول الشفاعة لا نفعها ، ونفي أصل العدل الذي هو الفداء ، وبدأ بالشفاعة في الأولى لتيسيرها على الطالب أكثر من تحصيل العدل على ما هو معروف في دار الدنيا .

أما في الثانية .. فإنه لما تقرر زيادة التأكيد بدأ بما هو أعظم الذي هو الخلاص بالعدل وثنَّى بنفي الشفاعة فقال : « ولا تنفعها شفاعة » ولم يقل : لا تُقبل منها شفاعة ، وإن كان نفي الشفاعة يستلزم نفي قبولها ، لأن الشفاعة تكون نافعة غير مقبولة فنفي الشفاعة أعم ، فلم يكن بين نفي القبول ونفي النفع بالشفاعة تلازم .

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ١/١٢٥ .

(٢) المرجع السابق : ١/١٢٦ .

فنفي قبول العدل ونفي نفع الشفاعة مؤكدان لاستقرار ذلك في الآية ، ونقل عن صاحب المفردات رأيًا خلاصته : « وأما تغيير النظم فلما كان قبول العدل وأخذه . وقبولها الشفاعة ونفعها متلازمة لم يكن بين اتفاق هذه العبارات واختلافها فرق في المعنى »[1].

ولكن الزركشي لم يرتض هذا الرأي ورده ردًّا موفقًا[2] ، ونقل عن الإمام فخر الدين الرازي : إن الناس متفاوتون ، فمنهم مَن يختار أن يشفع فيه أولاً ، ومنهم مَن يختار بذل العدل ، فذكر الله لكل طائفة ما يلائمها في الموضعين ، وبهذا ينتهي حديث الزركشي عن هاتين الآيتين .

● **جولة مع المفسرين :**

وقد رجعتُ إلى تفسير الزمخشري فوجدته يُرجع الضمير في الموضعين للنفس الثانية العاصية ويجوز عوده على الأولى .

أي لا تُقبل شفاعتها في غيرها ، ولا يؤخذ منها عدل إذا أرادت أن تبذله لخلاص غيرها[3] .

والإمام النسفي يرجع الضمير في : « ولا يقبل منها شفاعة » و: « ولا يؤخذ منها عدل .. » للنفس الأولى ـ المؤمنة ـ إذا شفعت في الكافرة[4].

أما أبو السعود فيُجوِّز عود الضمير على أي منهما[5] ، ولم يتعرض منهم أحد للتقديم والتأخير في هذه المواضع ، وشغلهم عنها مرجع الضمير وتقرير المعنى .

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني .
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ١٢٦/١ .
(٣،٤) تفسير الكشاف للزمخشري : ١٠٢/١ .
(٥) تفسير النسفي : ٣٧/١ ، تفسير أبي السعود : ١٢١/١ .

أما الخطيب الإسكافي فقد اقتضب القول اقتضابًا وجاء تخريجه للمسألة توجيهًا عامًّا لم يتعرض فيه للتقديم في موضع ـ والتأخير في آخر[1].

تلك خلاصة سريعة لما ذكره صاحب البرهان من نقول ، وما يراه هو شخصيًّا في توجيه التقديم والتأخير في هذا الموضع .

وخلاصة سريعة ـ أيضًا ـ لما ذكره ثلاثة من المفسرين وإشارة إلى رأي الخطيب الإسكافي ، فهل بقي ـ بعد ـ احتمال آخر يتفق مع طبيعة الأسلوب؟

● **رأيي في المسألة :**

والذي أرجحه في مسألة إرجاع الضمائر هو أن يكون الضميران في الآية الأولى راجعين إلى النفس الأولى ، لأنها المتحدث عنها ، ولأن الضمير في : « ولا يقبل منها شفاعة » لا يصح رجوعه إلا إليها ، لأنه لو أراد النفس الثانية « العاصية » لقال : « ولا يقبل فيها شفاعة » وهذا يرجح عود الضمير في : « ولا يؤخذ منها عدل » إليها هي أيضًا ، ويكون المعنى ـ والله أعلم ـ : إن النفس المؤمنة لا تجزى عن سواها شيئًا ، وإذا شفعت في غيرها فشفاعتها مردودة ، وإذا استبدلت بالشفاعة المردودة العدل فإنه كذلك لا يؤخذ منها .

ويكون ذلك كله تأكيدًا لانفصام الروابط التي كانت بين الناس في الحياة الدنيا من والدية ومولودية وأخوة وصداقة وزوجية : ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ** ﴾ (النجم:٣٩) .

وعود الضميرين في هذه الآية على النفس الأولى أولى ـ عندي ـ حتى تكون الأفعال المنفية في المواضع التي هي : « لا تجزى » و « لا يُقبل » و « ولا يؤخذ » حديثًا عن النفس الأولى في سلسلة واحدة تخصها .

أما في الآية الثانية .. فإن الضميرين لا يحسن عودهما إلا على النفس الثانية العاصية .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ٦ ، ٧ .

ويكون المعنى : أن النفس العاصية يوم القيامة لا يجزى عنها أحد شيئًا مهما كانت الروابط ، وإذا أراد أن يفدي نفسه فلا يُقبل منه فدى ، وإذا تشفع بغيره فلا تنفعه شفاعة .

أما تقديم الشفاعة أولاً وتأخيرها ثانيًا ، وتأخير العدل أولاً وتقديمه ثانيًا ، فإني أتفق مع ما ذكره الزركشي عن أحد شيوخه في توجيهه لهذا التقديم والتأخير ، إذ المراد به قطع رجائهم ردًّا لما ذكره بنو إسرائيل من أنهم أبناء الأنبياء وسيشفعون لهم يوم القيامة .

ففي الآية الأولى نفى عنهم نفع الغير بكل وجه من وجوه النفع ، وفي الثانية نفى عنهم نفع أنفسهم مقدِّمًا الفداء الذي يدفعه المجرم عن نفسه في الغالب ، وأخَّر الشفاعة لأنها تكون من غيرهم ، والله أعلم .

● **الموضع العشرون «اللَّعب واللَّهو» :**

في هذا الموضع تدور المقارنة حول تقديم اللَّعب على اللَّهو ، ثم تقديم اللَّهو على اللَّعب ، في مواضع أخرى .

أما تقديم اللَّعب على اللَّهو ففي المواضع الأربعة الآتية :

١، ٢- الأنعام في آيتين : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام:٣٢) .

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الأنعام: ٧٠) .

٣- محمد في آية واحدة : ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾ (محمد:٣٦) .

٤- الحديد في آية واحدة : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (الحديد: ٢٠) .

وقدَّم اللَّهو على اللَّعب فيما يأتي :

١- الأعراف : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (الأعراف:٥١) .

٢- العنكبوت : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت:٦٤) .

ذكر الزركشي في البرهان[1] هذه المواضع وعلَّل تقديم اللَّعب على اللَّهو بأن اللَّعب يكون زمن الصبا ، واللَّهو يكون زمن الشباب ، وزمان الصبا متقدم على زمان اللَّهو .

أما تقديم اللَّهو في «الأعراف» فلأن ذلك يكون يوم القيامة فذكر على ترتيب ما انقضى وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالين .

وأما في «العنكبوت» فلأن زمان الشباب الذي يكون فيه اللَّهو أكثر من زمان الصبا الذي يكون فيه اللَّعب ، وإنما ذكر ذلك هنا لأن المراد زمان الدنيا ، وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء .

هذه خلاصة سريعة لما ذكره الزركشي في توجيه هذه المواضع ، لكن الباحث لا يقنع بما ذكره جملة وإن كان بعضه مقبولاً .

ويحسن هنا التفرقة بين اللَّعب واللَّهو ..

● مفهوم اللَّعب واللَّهو :

«لعب : أصل الكلمة «اللُّعاب» وهو البزاق السائل .. ويلعب فلان : إذا كان فعله غير قاصد به مقصدًا صحيحًا ..»[2] .

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ١/١٢١ .

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٥٠ .

«اللهو : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه . يقال : لهوت بكذا .. ولهيت عن كذا : اشتغلت عنه بلهو ...»[1] .

هذا ما ذكره الراغب في تحديد معنى اللَّعب ومعنى اللَّهو ، والمتأمل فيهما يجد أنهما غير مترادفين ، بل لكل منهما معنى ، فاللَّعب لا يكون إلا فعلاً لم يتحدد من ورائه قصد مفيد ، أما اللَّهو فقد يكون فعلاً من أفعال النفس غير مصحوب بحركة ويكون حينئذ أقرب إلى معنى الذهول .

قال الزمخشري : «يقال لمن كان في عمل لا يجدى عليه : إنما أنت لاعب»[2] .

وقال في موضع آخر : «يشتغلون بما لا يجدي عليهم كأنهم يلعبون»[3] .

وقال أبو السعود : «اللَّعب عمل يثقل النفس ويفترها عما تنتفع به ، واللَّهو صرفها عن الجد»[4] . فالفرق ـ إذن ـ أن كل لعب يمكن أن يكون لهوًا ، وقد ينفرد في الذهول النفسي ولو لم يُصحب بعمل .

ويؤيد تفسير اللَّهو بهذا المعنى أن القرآن أسنده إلى القلب في قوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ (الأنبياء:٢،٣) .

وإسناد اللَّهو إلى القلوب دليل على أن اللَّهو عمل من أعمال النفس ، وليس بلازم أن يُصحب بحركات ، وإلا لكان لعبًا فيما يبدو .

● **اللَّعب في القرآن :**

وإذا رجعنا إلى القرآن نفسه في استخدام هاتين المادتين وجدناه كثيرًا ما يُطلق اللَّعب على سلوك المخالفين للرسل من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٥٥ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ١/٣٥ .

(٣) المرجع السابق : ٢/١٠٥ .

(٤) تفسير أبي السعود : ٢/١٤١ .

سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (التوبة:٦٥).

وقوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ (الزخرف:٨٣) ، (المعارج:٤٢) .

وقال : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام:٩١).

وقال : ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأعراف:٩٨).

وقال : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ (الدخان:٩).

وقال : ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ (الطور:١١،١٢) .

وقال : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ (العنكبوت:٦٤) .

وقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ (محمد:٣٦) .

وقال : ﴿ ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ (الحديد:٢٠) .

وقال : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ﴾ (المائدة:٥٧).

وقال : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ (المائدة:٥٨) .

وقال : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الأنعام:٧٠) .

● **اللَّعب والخوض :**

في هذه النصوص الكريمة جاء اللَّعب مع الخوض في خمس آيات ، اثنتان منها بلفظ الاسم وثلاثة بلفظ الفعل .

وفي الآيات الخمس جاء الخوض مقدَّمًا على اللعب ، وقد نص المفسرون على أن المراد بالخوض هو الباطل[1] ، وأنا معهم . وأضيف أن إطلاق

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١٩٣/٤ .

الخوض على الباطل مجاز في التعبير لأن الخوض إنما يكون في الماء ، يقال : خاض الماء خوضًا ومخاضة[1] .

قال الراغب : « الخوض هو الشرع في الماء والمرور فيه ، ويُستعار في الأمور وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يُذَم الشروع فيه »[2] .

● **التوجيه البلاغي للنص :**

والمجاز فيه يصلح أن يكون استعارة بالكناية حيث يُشبِّه الباطل بالماء ثم يحذف ويرمز له بشيء من لوازمه وهو الخوض ، والجامع بين المستعار منه والمستعار هو أن كلا منهما مهلك ، الباطل يحق بفاعله العقاب ، والماء يغرق مَن يخوض فيه .

أو يكون استعارة تبعية تصريحية يُشبَّه فيها اقتراف الباطل بخوض الماء والجامع ما مَرَّ ، والاستعارة على هذا استعارة مفردة ، ويجوز حملها على التمثيل ، وهما أولى من الأول .

ولما كان الخوض بهذا المعنى قُدِّم على اللَّعب ، وجُعِل محتويًا عليه : ﴿ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام:٩١)، وكذلك في إطلاق اللَّعب على أعمالهم وسلوكهم مجاز في التعبير على طريق الاستعارة التصريحية التبعية وفيه تعريض بهم لأن اللَّعب لا يكون إلا للصبيان غير الراشدين وفيه رمز إلى حقارة أعمالهم حيث لم يترتب عليها نفع كاللَّعب .

ولهذا قدَّم اللَّعب ـ والله أعلم ـ على اللَّهو في المواضع الأربعة المذكورة ، كما قدَّم الهزو على اللَّعب لأن الهزو ـ وهو الاستهزاء والسخرية ـ أشد شناعة من اللَّعب .

---

(١) مختار الصحاح ص ١٩٣ .

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٩ .

● لماذا قدَّم «اللّهو على اللّعب» إذن ؟

أما الموضعان اللذان قَدَّم فيهما اللَّهو على اللَّعب ـ وذلك جار على خلاف الغالب فيه ـ فلأن المقام يقتضي ذلك .

● والبيان :

إنَّ اللَّهو ـ على ما سبق ـ من شأنه أن يُنسى اللاهي ويُشغله عما ينفعه ، ولما كان معناه ـ كذلك ـ مدح الله الطائعين من عباده نافيًا عنهم اللَّهو فقال : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (النور:٣٦،٣٧).. أي لا تشغلهم .

وقد نسب الله النسيان إلى الكافرين في سورة الأعراف في الآية التي قدَّم فيها اللَّهو على اللعب ، فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ (الأعراف:٥١) .

فهم هنا : ناسون .. لذلك ـ والله أعلم ـ قدَّم اللَّهو على اللعب لغلبة صفة النسيان على الموقف ، واللاهي ناس أو قريب منه .

أما في سورة العنكبوت .. فقد جاء قبل الآية التي قدَّم فيها اللَّهو على اللَّعب قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (العنكبوت:٦١-٦٣).

هذه حقائق لو سئلوا عنها لنسبوها لخالقها ، وهذا يقتضي أن لا يكفروا إذن فلماذا كفروا ولم ينتفعوا بهذا العلم ؟

مرجع ذلك أنهم ناسون لاهون ، متشاغلون عنه بلهو الحياة وغرور الدنيا.

إن جانب اللَّهو ـ هنا ـ ظاهر . لذلك ـ والله أعلم ـ قُدِّم اللَّهو على اللَّعب كما قُدِّم هناك .

● **إجمال :**

وشبيه لهذه المواضع العشرين أن القرآن يجمع كثيرًا بين النفع والضر مُقدِّمًا أولهما على ثانيهما في الأقل ـ سبعة مواضع ـ ومُقدِّمًا ثانيهما على أولهما في الأكثر .

وسر ذلك كله راجع ـ قياسًا على ما قدَّمناه من المواضع العشرين ـ إلى دقائق وأسرار لا يُحرم المتأمل من شيء منها لو أحسن التأمل ، وعمق الفكر : ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١).

* * *